ليست بشيء فما كان لهم في الحقيقة من أولياء ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف يصلحون للولاية وقوله يضاعف لهم العذاب اعتراض بوعيد خسروا أنفسهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسرانهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه وهو أنهم خسروا أنفسهم وضل عنهم وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ما كانوا يفترون من الآلهة وشفاعتها لا جرم تفسير في كان أنهم هم الأخسرون لا ترى أحدا أبين خسرانا منهم وأخبتوا إلى ربهم واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة ومنه قولهم للشيء الدني الخبيت قال ينفع الطيب القليل من الرزق ولا ينفع الكثير الخبيت وقيل بالتاء فيه بدل من الثاء شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع وهو من اللف والطباق وفيه معنيان أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم أو الذي جمع بين البصر والسمع على أن يكون الواو في والأصم وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة كقوله الصابح فالغانم فالآيب هل يستويان يعني الفريقين مثلا تشبيها أرسلنا نوحا بأني لكم نذير معناه أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله إني لكم نذير مبين بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح في كأن والمعنى على الكسر وهو قولك إن زيدا كالأسد وقرئ بالكسر على إرادة القول أن لا تعبدوا بدل من إني لكم نذير أي أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه فإن قلت فإذا وصف به العذاب قلت مجازي مثله لأن الأليم في الحقيقة هو المعذب ونظيرهما قولك نهارك صائم وجد جده الملأ الأشراف من قولهم فلان مليء بكذا إذا كان مطيقا له وقد ملؤوا بالأمر لأنهم ملؤوا بكفايات الأمور واصطلعوا بها وبتدبيرها أو لأنهم يتمالؤون أي يتظاهرون ويتساندون أو لأنهم يملؤون القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة ما نراك إلا بشرا مثلنا تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا هب أنك واحد من الملأ وموازيهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم ألا ترى إلى قولهم وما نرى لكم علينا من فضل أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكا لا بشرا والأراذل جمع الأرذل كقوله أكابر مجرميها أحاسنكم أخلاقا قرئ بادي الرأي بالهمز وغير الهمز بمعنى اتبعوك أول الرأي أو ظاهر الرأي وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث أول رأيهم أو وقت حدوث ظاهر رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه أرادوا أن اتباعهم لك إنما هو شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية لأنهم كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ولقد زال عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحدا من الله وإنما يبعده ولا يرفعه بل يضعه فضلا أن يجعله سببا في الاختيار للنبوة والتأهيل لها على أن الأنبياء بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا مزهدين فيها مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله والتشرف هو ما يضعه عند الله من فضل من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوة بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه أرأيتم أخبروني إن كنت على بينة على برهان من ربي وشاهد منه يشهد بصحة دعواي وآتاني رحمة من عنده بإيتاء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة وبالرحمة النبوة فإن قلت فقوله فعميت ظاهر على الوجه الأول فما وجهه على الوجه الثاني وحقه أن يقال فعميتا قلت الوجه أن يقدر فعميت بعد البينة وأن يكون حذفه للاكتفاء بذكره مرة ومعنى عميت خفيت وقرئ فعميت بمعنى أخفيت وفي قراءة أبي فعماها عليكم فإن قلت فما حقيقته قلت حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره فمعنى فعميت عليكم البينة فلم تهدكم كما لو عمي على القوم

دليلهم

دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد فإن قلت فما معنى قراءة أبي قلت المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله وتصميمهم فجعلت تلك التخلية تعمية منه والدليل عليه قوله أنلزمكموها وأنتم لها كارهون يعني أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها وأنتم تكرهونها ولا تختارونها ولا إكراه في الدين وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعا ويجوز أن يكون الثاني منفصلا كقولك أنلزمكم إياها ونحوه فسيكفيكهم ويجوز فسيكفيك إياهم وحكي عن أبي عمرو إسكان الميم ووجهه أن الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة فظنها الراوي سكونا والإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر والضمير في قوله لا أسألكم عليه مالا راجع إلى قوله لهم إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله وقرئ وما أنا بطارد الذين آمنوا بالتنوين على الأصل فإن قلت ما معنى قوله إنهم ملاقوا ربهم قلت معناه أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر وتفكر وما علي أن أشق على قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون ونحوه ولا تطرد الذين يدعون ربهم الآية أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة تجهلون تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل من قوله ألا لا يجهلن أحد علينا أو تجهلون لقاء ربكم أو تجهلون أنهم خير منكم من ينصرني من الله من يمنعني من انتقامه إن طردتهم وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به أنفة من أن يكونوا معهم على سواء أعلم الغيب معطوف على عندي خزائن الله أي لا أقول عندي خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب ومعناه لا أقول لكم عندي خزائن الله فأدعي فضلا عليكم في الغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم ولا أقول إني ملك حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيرا في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه كما تقولون مساعدة لكم ونزولا على هواكم إني إذا لمن الظالمين إن قلت شيئا من ذلك والازدراء افتعال من زرى عليه إذا عابه وازدرى به نظيره قال أزدرته عينه واقتحمته عينه جادلتنا فأكثرت معناه أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته كقولك جاد فلان فأكثر وأطاب فأتنا بما تعدنا من العذاب المعجل إنما يأتيكم به الله أي ليس الإتيان بالعذاب إلي إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه إن شاء يعني إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم وقرأ ابن عباس فأكثرت جدلنا فإن قلت ما وجه ترادف هذين الشرطين قلت قوله إن كان الله يريد أن يغويكم جزاؤه ما دل عليه قوله لا ينفعكم نصحي وهذا الدال في حكم ما دل عليه فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك إن أحسنت إلي أحسنت إليك إن أمكنني فإن قلت فما معنى قوله إن كان الله يريد أن يغويكم قلت إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه سمي ذلك إغواء وإضلالا كما إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلطف به سمي إرشادا وهداية وقيل أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى إذا بشم فهلك ومعناه أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا ينفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر ألطافه كيف ينفعكم نصحي فعلي إجرامي وقرئ أجرامي بلفظ المصدر والجمع كقوله والله يعلم إسرارهم وأسرارهم ونحو جرم وأجرام قفل وأقفال وفسر الجمع أن فسر الأولون بآثامي والمعنى إن صح وثبت أني افتريته فعلي عقوبة إجرامي أي افترائي وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عني وتتألبوا علي وأنا بريء يعني ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه ومعنى مما تجرمون من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم لن يؤمن إقناط من إيمانهم وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع إلا من قد آمن إلا من وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه وقد للتوقع وقد أصاب محزها فلا تبتئس فلا تحزن حزن بائس مستكين قال فما يقسم الله أقبل غير مبتئس منه وأقعد كريما ناعم البال والمعنى فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك فقد حان وقت الانتقام لك منهم بأعيننا في موضع الحال بمعنى اصنعها محفوظا وحقيقته ملتبسا بأعيننا كأن لله معه أعينا تكلؤه